بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دعانى إلى اختيار هذا الموضوع ما يتمتع به حسان بن ثابت من اسم لامع فى عالم الشعر والشعراء ، وما أضفته عليه صحبته للرسول من جلال ، ربما امتد ظله إلى شعره ، فتحرّج بعض الباحثين من تناوله بالبحث الحر الدقيق .

فقد تفرد حسان من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الذرب والشاعر المبين لدعوة دينية شاملة كبرى . قدمه صاحبها للذود عنها ، وحماية أعراض أنصارها ، فنافح عنها ما شاء الله أن ينافح ، وخلد مواقفها فى غرر شعره. وكان له أثر كبير فى هدم أعدائها ، وخلع عليه مؤسسها من التكريم ما تنقطع دونه أعناق النظراء . ومع ذلك فإن هذا الشاعر العظيم ، ذا الأثر الكبير فى حياة الإسلام . لم ينل من مؤرخى الأدب العربى ما هو جدير به من العناية والدرس والتحقيق ، فظل تاريخه وأخباره وأشعاره خليطاً من الروايات والقصص ، وأشتاتاً متفرقة تطويها بطون الكتب ، وظلت صور حياته فى الجاهلية مطموسة المعالم . مع أن حياة حسان حلقة من تاريخ الإسلام لا بد من تحقيقها ، وذكرى من ذكريات الهجرة لابد من إحيائها ، وشعره وشعر رفاقه وخصومه أيام النبوة ناحية هامة فى الأدب العربى ، يجب أن تفرد بالبحث والدرس والتدوين .

وشجعنى على المضى فى هذا البحث أنه لم يتح لشخصية أدبية هامة غير حسان أن تمثل عصرين أدبيين عظيمين ، لها فيهما من الآثار الكثيرة ما يعين على دراسة الحياة الأدبية فى هذين العصرين ، الجاهلى والإسلامى ، ويساعد فى تبين وجوه الخلاف بينهما وأسبابه ، وستكون النتائج بدون شك أدق وأصدق ، إذ يجرى البحث فى محيط معين ، وعلى آثار شاعر واحد .

كما شجعنى عليه الرغبة فى دراسة الحياة الأدبية فى ظل النهضة الإسلامية ،

وفى معرفة نصيب الشعر فى خدمة تلك النهضة ، ومبلغ رعايتها له ، وأثرها فى الشعر والشعراء ، عن طريق أبرز شخصية أدبية فى ذلك العصر .

وحُبب إلىّ استجلاء صورة الشعر فى ظل القرى العربية فى تلك الفترة ، التى انتقلت فيها الزعامة الأدبية من البادية إلى الحضر ، وتعرُّف أثر الحضارة فى الشعر والحياة العقلية ، وقد دعانى هذا إلى سلوك المنهج التاريخى الفنى فى هذه الدراسة ، فقسمت البحث إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : عصر حسان فى فصلين

الفصل الأول : جاهلية العرب قبيل الإسلام

الفصل الثانى : المدينة

الباب الثانى : سيرة حسان

الباب الثالث : شعر حسان فى ثلاثة فصول

الفصل الأول : شعره الجاهلى

الفصل الثانى : شعره الإسلامى

الفصل الثالث : فنه ومنزلته

ذلك لأنه لا يمكن فى مثل هذا الموضوع قيام دراسة شاملة ، والوصول إلى نتائج صحيحة ، دون دراسة العصر والبيئة ، ودون دراسة الشاعر نفسه وحياته وطبيعته واتجاهاته ، ثم يجىء دور الشعر ، وهو نتيجة التفاعل بين الشاعر وبيئته ، وبه تكمل دراسته وتتقرر منزلته .

وقد صدرت البحث بتمهيد ، عرضت فيه الصورة الأخيرة للشعر الجاهلى زمن حسان ، وأثر الإسلام فى الشعر ، والشعراء الذين كانوا عند الإسلام وأثره فى شعرهم .

وقد وجدتنى فى هذه الدراسة مضطرًّا إلى الاعتماد على المراجع التاريخية الأدبية فى تحقيق حياة حسان ، وتصوير عصره وبيئته ، وعلى ديوانه وغيره من مصادر شعره فى دراسة آثاره الأدبية . فلقيت فى استجلاء صورته منذ نشأته ، وفى شبابه ورجولته ، وفى الوقوف على أثر بيئته وغيرها من العوامل فى تكوينه وتوجيهه كثيراً من الروايات المضطربة ، والقصص المتناقض ، الذى لا يعين على استنباط حقيقة ، أو تكوين صورة صحيحة ، والذى يحتاج فى استخلاص الحقيقة منه إلى أناة الباحث

المدقق ، وصبر الدارس الأمين ، ومع أن تحقيق ديوان حسان لا يدخل فى نطاق هذا البحث ، فقد وجدتنى بحاجة إلى توثيق هذا الديوان وتحقيقه ، لأطمئن بذلك إلى صحته ، وهو أوثق المصادر التى نستقى منها أخباره ونتعرف أحواله ، وتقوم عليها دراسة فنه ، تحرياً للدقة ونشداً للكمال ، فاستقرأت فهارس المتاحف والمكتبات المختلفة فى العالم ، فوجدت أن نسخ الديوان الخطية موجودة بالمتحف البريطانى ، وفى مكتبات برلين وباريس وبطرسبورج ، إلى مخطوطين آخرين بدار الكتب المصرية ، فنسخت صورة مطابقة من مخطوط المتحف البريطانى ، وأعانتنى دار الكتب المصرية مشكورة بتصوير أقدم مخطوطها وأوثقهما ، فكان بين يدى حيناً ، ثم وضعتُ بإزاء هذين مطبوع ليدن ، الذى قام على إخراجه الدكتور هرشفيلد ، وضممت إليها ما جاء بالفهارس التى أشرت إليها عن بقية المخطوطات ، وجلست طويلا لدراستها والمقارنة بينها ، حتى تحقق لى ما أردت من توثيق هذا الديوان .

وقد وجدت فى طريق هذه الدراسة والمقارنات كثيراً من الأخطاء العلمية والتاريخية بمطبوع ليدن . بالمقدمة الإنجليزية التى صدر بها هرشفيلد تلك الطبعة ، وبالديوان نفسه وبشرحه ، فاضطررت إلى مناقشتها وتصحيحها ، مما نجده فى موضعه من هذا الكتاب .

ثم بذلت جهداً كبيراً فى تحرى تصفية الديوان ، وتمييز شعره الجاهلى من سواه ، وسرت فى ذلك على أن كل شعر قيل فى حياة حسان الأولى بالمدينة ، مما يمثل اللهو وانتهاب اللذات ، أو يمثل العداوة والحرب بين الأوس والخزرج ، أو يتحدث عن رحلاته خارج المدينة وعند الغساسنة والمناذرة ، أو كان جاهلى النزعة خالياً من روح الإسلام وما يدل عليه ، هو شعر جاهلى .

وقد رأيت من تمام العناية بالبحث ، وتحقيقاً للثمرة المرجوة منه ، أن أنهج نهج الفرنجة فى الاعتماد على إحصاءات شاملة تتضح بها الحقائق ، وتتأكد النتائج ، وتغنى النظرة إليها عن وقت طويل يضيع سدى ، وتطالعك كلما شئت بما تريد منها ، فصنعت لشعر حسان ستة جداول :

الأول يبين عدد القطع فى كل من شعره الجاهلى والإسلامى ، وما كان منها من القصائد وما كان من المقطوعات ، وعدد أبيات كل ، ومجموع شعر الديوان كله قصائد وأبياتاً .

والثانى للإحصاء والموازنة بين شعره الجاهلى والإسلامى فى أغراضه، وبيان عدد قطعه فى كل غرض من تلك الأغراض .

والثالث يفصل عدد القصائد الجاهلية ، وما اشتملت عليه كل قصيدة من أغراض ، ونسبة شيوع كل غرض منها فى ذلك الشعر ، ويبين أرقام القصائد بالديوان حسب ترقيم طبعة هرشفيلد .

والرابع يوضح مثل ما تقدم فى الشعر الإسلامى .

والخامس يبين أرقام القصائد التى قيلت فى كل غزوة أو مناسبة إسلامية .

والسادس يبين بحور الشعر التى نظم عليها الشاعر ، وعدد أبيات كل بحر فى الجاهلية والإسلام ، ونسبتها المئوية إلى شعره .

وقد بنيت هذه الجداول جميعاً على الطبعة التى أخرجها الدكتور هرشفيلد. والناظر فيها يقدر دون شك مبلغ الجهد والوقت الطويل الذى بذل فى إعدادها وإخراجها ، ولكنه سيدرك أيضاً دون ريب جليل فائدتها وعظيم غنائها ، وضرورة انتهاج المؤلفين من العرب هذا النهج الأمثل .

كما رأيت استكمالاً للفائدة وتوضيحاً لكل خفى أن ألحق بهذا البحث مصوراً جغرافياً لجزيرة العرب قبيل الإسلام ، يبين مواضع المدينة ومكة ، والمواقع التى ورد ذكرها فى شعر حسان ، والبلاد التى اتصلت بالحجاز أو اتصل بها حسان ، كديار الغساسنة والمناذرة واليمن والحبشة .

وقد رجعت فى الشطر الأول من البحث ، وهو دراسة عصر حسان وبيئته وتحقيق حياته إلى مراجع كثيرة من أهمها : وفاء الوفا للسمهودى ، وأخبار مكة للأزرقى ، وتاريخ اليعقوبى ، والكامل لابن الأثير ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ، والأغانى لأبى الفرج ، وسيرة الرسول لابن هشام ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، وأمراء غسان لنولدكه ، ومهد الإسلام للأمانس ، وتاريخ العرب لسيديو ، والجزيرة العربية قبل محمد لأوليرى .

وكان اعتمادى فى الشطر الآخر من البحث ، وهو دراسة الشعر ، على النسخ الخطية والمطبوعة من الديوان بعد توثيقه ، وإن وجدت إلى جانبها شعراً بمصادر أخرى لا يبعث على الارتياح إليه . وفى آخر هذا البحث بيان للمراجع التى انتفعت بها ، والتى ذكرتها فى مواضعها من هوامشه .

وقد وجدت أن من تمام هذه الدراسة أن يكون عرضنا لحسان فى إطار من الحياة التى كانت تحيط به ، وبين الطائفة التى عاصرها من الشعراء، وكان لها به لون من الاتصال ، سواء أكانوا من الأعداء أم من الأولياء ، لتكون الصورة الأدبية لذلك العصر أوضح وأكمل ، ويكون موضع حسان فيها أظهر وأبين ، وتقديره أدق وأصدق.

وقد انتهى بى البحث إلى نتائج ، أرجو أن أكون قد حققت بها ما أهدف إليه من وراء هذه الدراسة ، وأقمت معالم لمن شاء أن يتابع السير فى طريقها ، وآمل أن يؤتى هذا العمل ثماره، من شحذ الهمم إلى متابعته ، والتعقيب عليه ، واستكمال جوانبه .

وسيأتى فى محيط البحث تفصيل ما أجملنا بهذه المقدمة ، والله ولى التوفيق . . .